لا بديل عن الدين

ومن الناس مَن يتصور إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم الحديث حيناً ، أو المذاهب الفكرية « الأيديولوچيات » الحديثة حيناً آخر .

وكِلا التصورين خطأ .

فقد بيَّن الواقع الناطق أنه لا شىء يغنى عن الدين ، ويقوم بديلاً عنه فى أداء رسالته الضخمة فى حياة الإنسان .

● العلم ليس بديلاً عن الدين :

أما العلم فليس بديلاً عن الدين والإيمان بحال . فإن مجال العلم غير مجال الدين . وأريد بـ « العلم » هنا العلم بمفهومه الغربى المحدود ، لا بمفهومه الإسلامى الشامل . الذى يشمل العلم بالظواهر الجزئية للكون ، والعلم بحقائق الوجود الكبرى . أى ما يشمل علم الدنيا ، وعلم الدين . فليس هو علم المادة وخواصها فحسب ، بل العلم المتعلق بالكون والحياة والإنسان ، وخالقها سبحانه .

العلم بالمفهوم الغربى لا يصلح بديلاً عن الدين ، لأن مهمة هذا العلم أن يُيسِّر للإنسان أسباب الحياة ، لا أن يُفسِّر له ألغازها . العلم يعين الإنسان على حل مشكلة العيش ، ولكن لا يعينه على حل مشكلة الوجود وقضاياه الكبرى .

ولهذا نرى أعظم البلاد فى عصرنا تقدماً فى العلم ، وأخذاً بأسبابه ، يشكو أهلها من الفراغ الروحى ، والقلق النفسى ، والاضطراب الفكرى ، والشعور الدائم بالتفاهة والاكتئاب والضياع . ونرى شبابها ينقلبون بين شتَّى البِدع الفكرية والسلوكية ، ثائرين على آلية الحياة ، ومادية الحضارة ، وإن لم يهتدوا إلى المنهج السليم ، والصراط المستقيم .

وهذا هو سر العوج والشذوذ والانحرافات ، التى لمسها العالم كله فى سلوك أُولئك الشباب الحائرين ، الذين يسمونهم « الخنافس » أو « الهيبيين » وأشباههم ممن ضاق ذرعهم بتفاهة العيش ، وتمردوا على حضارة الغرب وإن نشأوا بين أحضانها .

إن العلم الحديث محدود الوسع ، محدود القُدرة ، محدود المجال .

فى وسع العلم أن يمنح الإنسان الوسائل والآلات ، ولكن ليس فى وسعه ولا من اختصاصه أن يمنحه الأهداف والغايات ، وما أتعس الإنسان إذا تكدَّست لديه الوسائل دون أن يعرف لنفسه هدفاً ولا لحياته قيمة ، إلا أهداف السباع فى العدوان ، أو أهداف البهائم فى الأكل والسِفاد ، أما هدف رفيع يليق بمواهب الإنسان ، وخصائص الإنسان ، وكرامة الإنسان ، فلا .

إن الدين وحده هو الذى يمنح الإنسان أهدافاً عليا للحياة ، وغايات كبرى للوجود ، ويجعل له فيه مهمة ورسالة ، ولحياته قيمة واعتباراً ، كما يمنحه القِيَم الخُلُقية والمُثُل العليا التى تحبسه عن الشر ، وتحفزه على الخير ، لغير منفعة مادية عاجلة .

لقد أعطى العلم الإنسان جناحى طائر فحلَّق فى الفضاء ، وأعطاه خياشيم حوت فغاص فى أعماق الماء ، ولكنه لم يعطه قلب إنسان !

وحين يعيش الإنسان فى الحياة بغير « قلب الإنسان » تستحيل أدوات العلم فى يديه إلى مخالب وأنياب تقتل وتُرهب ، وإلى معاول وألغام تنسف وتُدمِّر .

تستحيل أدوات العلم إلى أسلحة نووية ، وقنابل نابالم ، وغازات سامة ، وأسلحة كيماوية وجرثومية تنشر الموت والخراب عند استعمالها ، وتشيع الذعر والخوف قبل استعمالها (١) .

أجل . . قد استطاع العلم أن يضع قدم الإنسان على سطح القمر ، ولكنه لم يملك أن يضع يده على سر وجوده وغاية حياته !

لقد اكتشف الإنسان بالعلم « أشياء » كثيرة . ولكنه لم يكتشف حقيقة نفسه ! أوصله علم القرن العشرين إلى

---

(١) انظر : كتاب « الأسلحة الكيماوية والجرثومية » تأليف الدكتور نبيل صبحى ، لترى ما يحضِّره أعداء الإنسانية لإفناء الأحياء بسلطان العلم ومقدرة العلماء !! نشرته « مؤسسة الرسالة » ببيروت .

القمر . ولكن لم يوصله إلى السعادة والطمأنينة على ظهر الأرض ! جلب من هناك بعض الصخور والأتربة ، ولكنه لم يجد هناك ما يُخرجه من التعاسة والقلق والضياع فى كوكبه !

أصلح العلم ظاهر الإنسان ، وعجز عن إصلاح باطنه ، لم يستطع أن ينفذ إلى تلك « اللّطيفة الربّانية » المدركة الواعية ، الشاعرة الحسّاسة ، التى إذا صلحت صلح الإنسان كله ، وإذا فسدت فسد الإنسان كله ، ألا وهى القلب ، أو النفس ، أو الروح ، سمها ما شئتَ ، فهى حقيقة الإنسان !

أعطى العلم إنسان القرن العشرين سلاحاً انتصر به على بعض قُوَى الطبيعة ، ولم يعطه ما ينتصر به على نفسه : على شهواته ، وشكه ، وقلقه ، وخوفه ، وتخبطه ، وصراعه الداخلى والاجتماعى .

لقد تقدّم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما فى هذا القرن ، وبدأ الأطباء يقولون : إن العلم يستطيع

القضاء على كل مرض غير الموت والشيخوخة !! ولكن الأمراض تكثر وتتشعب وتنتشر بسرعة مذهلة ، ومنها « الأمراض العصبية » و« النفسية » التى هى نتائج وأعراض « التناقض » الشديد الذى يمر به الفرد والمجتمع .

لقد حاول العلم الحديث أن يُغَذِّى كل الجوانب المادية فى الجسم الإنسانى ، ولكنه فشل فى تغذية الشعور والأمانى والإرادة . . . وكانت حصيلة ذلك جسماً طويل القامة ، ممتلئ النواحى ، ولكن الجانب الآخر من الجسم - وهو أصل الإنسان - أصبح يعانى من أزمات لا حدَّ لها .

لقد أكَّدت إحصائية : أن ثمانين فى المائة (٨٠٪) من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضاً ناتجة عن الأعصاب من ناحية أو أُخرى ، ويقول علم النفس الحديث : إن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية : الكراهية والحقد والجريمة والإرهاق واليأس والترقب والشك والأثرة والانزعاج من البيئة . وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله .

إن هذا الإيمان بالله يمنح الإنسان يقيناً جبَّاراً حتى يستطيع مواجهة أعتى المشكلات والصعاب ، فهو يجاهد فى سبيل هدف سام أعلى ، ويغض بصره عن الأهداف الدنيئة القذرة .

إن الإيمان بالله يعطى الإنسان « محرِّكاً » هو أساس سائر الأخلاق الطيبة ومصدر قوة العقيدة . . . العقيدة التى عبَّر عنها السير « وليام أوسلر » بقوله : إنها قوة محرِّكة عظيمة ، لا توزن بأى ميزان ، ولا يمكن تجربتها فى المعامل .

إن هذه العقيدة هى سر مخزن الصحة الموفورة التى يتمتع بها أصحابها . وأية نفسية محرومة من هذه العقيدة لن تنتهى إلا بالأمراض أقساها وأعتاها .

ومن شقوة الإنسان أن علماء النفس يبذلون كل ما يمكنهم من الجهود فى الكشف عن أمراض نفسية وعصبية جديدة ، ولكنهم فى نفس الوقت يهملون بذل الجهود للوصول إلى علاج هذه الأمراض ، وهذه الظاهرة تثير شعوراً كئيباً بأن هؤلاء العلماء قد أخفقوا فى الميدان

الأخير ، ولذلك أكبُّوا على الميدان الثانى يسترون خيبتهم ويُظهرون بطولتهم أمام العالم !

وإلى ذلك أشار أحد العلماء المسيحيين قائلاً : إن علماء الطب النفسى يبذلون كل جهودهم فى كشف أسرار « القفل » الدقيقة الذى سوف يغلق علينا كل أبواب الصحة !

فالمجتمع الجديد يسير فى اتجاهين فى وقت واحد ، فهو يحاول من جهة الحصول على جميع الكمالات المادية ، على حين يتسبب - لتركه الدين - فى خلق أحوال تجعل من الحياة جحيماً ، إنه يعطيك دواء الشفاء من الفم ، ويحقنك السم فى العضل !! (١) .

* *

● الأيديولوچيات الحديثة لا تغنى عن الدين :

وإذا كان العلم لا يصلح قَط بديلاً عن الدين ، فمثله المذاهب الفكرية الوضعية « الأيديولوچيات » التى أصبح

---

(١) عن كتاب « الإسلام يتحدى » ، تأليف : وحيد الدين خان ، تعريب : مظفر الإسلام خان ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩

لها فى عصرنا دعاتها ومبشروها . فهى لا تستطيع أبداً أن تقوم مقام الدين . وهذا أحد الخبراء العالمين بالمذاهب والحضارات يحدثنا عن ذلك . فلنستمع إليه .

يقول « أرنولد توينبى » فى كتابه « العادة والتغيير » :

« إن من الخصائص الأساسية للإنسان « الإدراك » .. إدراك وجوده .. وإدراك العالَم المحيط به .. سواء من البَشر أو العالَم المادى وغير المادى .. هذا الإدراك هو ما جعل الإنسان مختاراً فى تصرفاته ، ذا إرادة فيما يتخذ من قرارات .. فقد قاده هذا الإدراك إلى اكتشاف أنه لا يعلم عن العالَم الذى يعيش فيه إلا القليل من القشور .. وأن هذا القليل الذى يعرفه لا يستطيع أن يُفسِّر له سر الحياة والكون . ولقد أدرك أن الكلمة الأخيرة فى مصيره ليست فى متناوله .. ولكنها مِلْك قوى قاهرة ، عليه أن يتعرَّف عليها ، وأن يعيش متوافقاً معها متصلاً بها .

وحيث إن التدين جزء من الطبيعة البَشرية .. وحيث إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش دون دين من نوع ما .. فلقد ترتب على تراجع الدين عن موقعه فى

أوروبا أن قامت ديانات بديلة تسمى : المذاهب الفكرية ، أو « الأيديولوچيات » الفردية أو الرأسمالية ، والجَماعية أو الشيوعية ، والوطنية أو القومية .

إن الحرب الباردة التى يستعر أوراها بين « الأيديولوچيات » المعاصرة من جانب ، والأديان العليا (السماوية) من جانب آخر هى أخطر - بالنسبة لمستقبل البَشرية - من المشادة بين الشيوعية والرأسمالية ، بالرغم مما يلقاه الحوار بينهما من اهتمام عالَمى . فهل هذه « الأيديولوچيات » أديان جديدة أم انتكاسات ؟

فى الحق إنها ليست أمراً جديداً . . إنها انتكاسة للحرية التى اكتسبها الإنسان عبر العصور . . إنها تأخر ورجعية إلى فجر الحضارة حينما كان الإنسان يعبد ما لا يستطيع أن يسيطر عليه من قُوَى غامضة ، وهو حينما تقدَّم واستطاع أن يكون له دور مهم فى البيئة الطبيعية . . ترك عبادة قُوَى الطبيعة ، وعبد قُوَته الجَماعية كما تتمثل فى الحاكم .

إن الشيوعية قد أخطأت السبيل - لا فى إصرارها على

العدالة الاجتماعية - ولكن فى تضحيتها بالحرية من أجل العدالة .

والرأسمالية أيضاً قد أخطأت السبيل - لا فى إصرارها على احترام فردية الإنسان وحريته - ولكن فى تضحيتها بالعدالة فى سبيل الفردية .

إن كلا منهما يؤيد جانب على حساب الآخر . . وكلتا النظريتين مادية ، وكما كان الإنسان لا يستطيع أن يحيا بالخبز وحده . . فإن هذين التفسيرين الماديين للعدالة والحرية تفسيران خاطئان .

على أنه يبدو أن كلتا العقيدتين ستستمر فى الحياة ، ولن تستطيع إحداهما التغلب نهائياً على الأخرى . . والاثنان فى صراع مع الوطنية أو القومية . . ولو أن هذا الصراع لا يحظى باهتمام كبير . . ولكنه ما إن تصطدم إحداهما مع الوطنية حتى تنتصر الوطنية . . وحينئذ يصبح الشيوعى والرأسمالى وطنياً أولاً وتتبعها صفته الثانية : الشيوعية أو الرأسمالية .

إن جميع « الأيديولوچيات » تشترك فى نقطة ضعف

واحدة قد تودى بها جميعاً ، وذلك فى منافستها للأديان العليا على اكتساب ولاء الجماهير .

وهذا معناه العودة إلى عبادة الإنسان . . فبعد أن حرَّرته الأديان من عبودية المجتمع ، وعبودية الفرد ، ليتجه إلى الله وحده . . عاد الإنسان إلى سجن المجتمع ، وبعد أن كان فى علاقة مباشرة مع الحقيقة الخالدة . . عاد إلى ديكتاتورية العصور البائدة .

فتضاءل ليصبح مجرد نملة اجتماعية فى مجتمع النمل !!

لقد استطاعت الأديان أن تُعلِّم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية . . ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار . . ولن تستطيع « الأيديولوچيات » أن تنسيه هذه الحقيقة . . لأنها لا تستطيع أن تحقق له الانعتاق الروحى الذى منحته له الأديان . صحيح أن بعض الأديان قد أقامت سجوناً من صنعها ، حينما خلقت من الأجهزة والنُظم ما أصبح حاجزاً بين الإنسان وخالقه ، كما كان يصنع المجتمع القديم من قبل . . وهذا التحكم والتسلط من جانب بعض الأجهزة الدينية يتناقض أساساً مع سبب وجودهما فإنها

وُجِدت لتحرر الإنسان من إسار المجتمع ، وتضعه مباشرة أمام مسئولياته فى علاقة مباشرة مع الحقيقة السرمدية الخالدة . . ومع ذلك فبالرغم من هذا التسلط والتحكم من جانب بعض الأديان ، إلا أنها استطاعت أن تمنح معتنقيها هدية لا تستطيع أن تجاريها فيها « الأيديولوچيات » الحديثة . . لقد منحته الاطمئنان من المساعدة والتوجيه والمثل الأعلى الخليق بالطموح . . لقد منحته الراحة الروحية وحرَّرته من سجون المجتمع .

إن كل إنسان يخطئ ويفشل . . ويزل ويشقى . . وفى النهاية ينتهى إلى الموت ، ومن هنا جاءت حاجته العميقة إلى العون الروحى الذى لا تستطيع أن تقدمه له « الأيديولوچيات » .

ومع هذا فإن « الأيديولوچيات » ستستمر فى اجتذاب الناس إلى حظيرتها ما لم تعمل الأديان على أن تستعيد سلطانها على قلوب البَشر . . وهى لن تستطيع ذلك إلا إذا صدقت مع نفسها واستطاعت :

١ - أن تتعاون بدلاً من الصراع والعداوة .

٢ - وأن تهتم اهتماماً جدياً بحقائق العصر الحديث .

٣ - وأن تنفض عنها الطقوس التى طغت على جوهرها .. مما تراكم من الخزعبلات عبر العصور .

فالدين هو قلب الحياة للإنسان .. وهو جوهر الحياة للإنسانية .. هو النور الذى يغمر القلوب ، فلا غِنَى للإنسان عن الدين .. ولن تستطيع « الأيديولوچيات » أن تحل محل الدين لأنها تمنحنا التعصب والتباغض ، بدلاً من أن تمنحنا المحبة والتعاون ، إنها قد تمنحنا لقمة الخبز ، ولكنها تسلبنا الطمأنينة النفسية والتحرر الروحى »(١) .

* *

● الرد على دعوى الماركسيين :

أما ما يردده الماركسيون من أن الدين « أفيون الشعوب » فهو ادعاء باطل ومردود من وجهين :

---

(١) عن مجلة « الوعى الإسلامى » السنة الثالثة - العدد السابع والعشرون - مقال « الأيديولوچيات والدين » . ترجمة الأستاذ محمد همام الهاشمى الخبير الاجتماعى بمجلس التخطيط بالكويت .

الأول : أن الدين الصحيح لا يُخدِّر الشعب ، ولا يلهيه عن المطالبة بحقه فى الدنيا ، استغراقاً بطلب النعيم فى الآخرة ! الدين الصحيح لا يقر الظلم ، ولا يرضى بالفساد والانحراف ، فإن صح هذا الادعاء فى شأن بعض الأديان ، فلا يصح بحال فى شأن الإسلام .

الإسلام فى الحقيقة ثورة إنسانية كبرى .. ثورة لتحرير الإنسان - كل إنسان - من العبودية والخضوع لغير خالقه .. ثورة فى عالَم الفكر والضمير والشعور ، وثورة فى عالَم الواقع والتطبيق .

وكان عنوان هذه الثورة هى هذه الكلمة العظيمة ، كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » فكل مدّع أو متعاط للألُوهية فى الأرض ، بالقول أو بالفعل ، هو مزوِّر لا وجود له . ولا يستحق البقاء . وكل الذين زعموا لأنفسهم - أو زعم لهم بعض الناس - أنهم أرباب مع الله ، أو من دون الله ، يجب أن يسقطوا إلى الأبد ، ويتواروا عن مسرح الحياة .

الناس إذن سواسية ، لا يجوز أن يستعبد بعضهم بعضاً ، أو يطغى بعضهم على بعض ، فإذا ظلم بعض الناس

وطغى وأفسد ، كان على الناس أن يعترضوا طريقه ، ويأخذوا على يديه ، وإلا كانوا شركاءه فى الإثم واستحقاق العقوبة العادلة من الله .

يقول الله الكريم : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ، وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (٢) .

ويقول الرسول ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده » (٣) .

ويوجب على كل مَن رأى منكراً - أى ظلماً أو فساداً أو انحرافاً - أن يعمل على تغييره بكل ما يستطيع من قوته : « مَن رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع

---

(١) هود : ١١٣ (٢) الأنفال : ٢٥

(٣) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (١) .

والتغيير بالقلب - الذى هو أدنى الدرجات وأضعف الإيمان - ليس أمراً سلبياً تافهاً . إنها جمرة الغضب والكراهية للفساد والمنكر تتوهج وتتقد فى الجوانح حتى تجد الفرصة للتغيير بالقول أو الفعل ، باللِّسان أو اليد . وأدنى ثمراته العاجلة النفور من الظَلَمة والمفسدين والمقاطعة لهم ، فلا يؤاكلهم ولا يشاربهم ، ولا يجالسهم ولا يصاحبهم .

وقد عَدَّ النبى ﷺ مقاومة الظلم والفساد الداخلى ، كمقاومة الغزو والعدوان الخارجى . كلاهما جهاد فى سبيل الله . بل حين سُئِل : أى الجهاد أفضل ؟ قال : « كلمة حق عند سلطان جائر » (٢) فاعتبر ذلك أفضل الجهاد وأعلاه .

---

(١) رواه مسلم وغيره .

(٢) رواه النسائى بإسناد صحيح كما فى « الترغيب » .

فهذا دين يحرِّض على مقاومة الظلم حتى الموت . ويعد الميت فى سبيل ذلك شهيداً فى سبيل الله ، بل فى طليعة الشهداء المرموقين ، بجوار حمزة بن عبد المطلب ، سيد الشهداء كما قال عليه الصلاة والسلام : « سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر ، فأمره ونهاه فقتله » (١) .

إن الإسلام يُربِّى المسلم على الشعور بالكرامة وعزة النفس ، ويجعل ذلك من خصائص الإيمان وآثاره : ﴿ وَلله الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِه وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، بل من خصائص الإنسانية ولوزامها : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ﴾ (٣) .

ولهذا يبرأ الإسلام من كل مَن يرضى لنفسه بالذل والمهانة ، ويصبر على القيد يوضع فى رِجله ، أو الغل يوضع فى عنقه دون أن يقاوم الظلم ، أو يحاول التخلص

---

(١) رواه الحاكم والضياء عن جابر وحسَّنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير .

(٢) المنافقون : ٨ (٣) الإسراء : ٧٠

منه ، ولو بالهجرة إلى أرض الله الفسيحة . يقول القرآن :
﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ ، قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّه وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ، فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ (١) .

ويرد الرسول ﷺ منطق الاستسلام الجبرى أو السلبى لأحداث الحياة ووقائع الدهر ، باسم الإيمان بالقَدَر . ويعتبر ذلك ضرباً من العجز المذموم فى دين الله . إن النبى صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبى الله ونِعْمَ الوكيل ! فقال النبى ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر ، فقل : حسبى اللهُ ونِعْمَ الوَكيل » (٢) .

كره النبى العظيم من الرجل أن يوارى عجزه بالحسبلة والحوقلة ، بدل أن يواجه الأمر بما ينبغى له من الحكمة والتفطن . فذِكْرُ الله فى غير موضعه عجز واستسلام .

---

(١) النساء : ٩٧ (٢) رواه أبو داود برقم (٣٦٢٧) .

ومن هنا جاء فى وصاياه صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوىُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ... احرص على ما ينفعك واستعن باللهِ ولا تعجز » (١) .

وجاء فى أدعيته التى علَّمها لبعض أصحابه : « اللَّهُمَّ إنِّى أعوذُ بك من الهَمِّ والحَزَن ، وأعوذُ بك من العجز والكسل ، وأعوذُ بك من الجبن والبخل ، وأعوذُ بك من غلبة الدَّيْن وقهر الرجال » (٢) .

ففى هذا الدعاء استعاذة بالله تعالى من كل مظاهر الضعف التى تعترى الإنسان فتغلبه وتقهره وتذله .

ومثل ذلك ما جاء فى دعاء القنوت : « اللَّهُمَّ إنَّا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونُثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا

---

(١) رواه مسلم .. والعجز : ترك ما يجب فعله بالتسويف ، والكيس : العقل وحُسن التصرف .

(٢) رواه أبو داود برقم (١٥٥٥) وفى سنده راوٍ ليِّن الحديث ، ولكن المفردات المستعاذ منها ثبتت فى الصحاح .

نكفرك ، ونخلع ونترك مَن يفجرك » .. فانظر ما تحمله هذه العبارة : « ونخلع ونترك مَن يفجرك » من تحريض سافر على خلع ومقاومة كل ظالم فاجر ، مهما تكن مكانته ومنصبه فى الناس .

فهل يقال فى مثل هذا الدين الذى يدعو إلى الثورة على الباطل والضعف والعجز والعبودية ، ويحرِّض على نُصرة الحق والقوة والحرية - إنه أفيون الشعب : يُخدِّره ويمنيه بنعيم الجنَّة ، ليسكت على مظالم حياته الدنيا ؟!!

لعل « ماركس » كان معذوراً حين قال ما قال ، لأنه لم يعرف الإسلام ، ولم يعرف موقفه من الظلم والبغى والفساد ، مع أن المنهج العلمى كان يُلزمه ألا يصدر حكمه عاماً شاملاً إلا بعد استقراء كامل ، ودراسة تامة لكل الأديان - أو للأديان الكبرى على الأقل - وأثرها فى الأُمم على مدار التاريخ ، فإن لم يستطع كان عليه أن يحكم على الدين الذى عرفه لا على غيره . هذا هو مقتضى الأمانة العلمية ، والمنهج العلمى .

قلت هذا عن « ماركس » منذ سنوات ونشرته مجلة

« منار الإسلام » فى دولة الإمارات العربية المتحدة . ثم أتيح لى أن أقرأ أخيراً ما كتبه الأستاذ الدكتور رشدى فكَّار - المتخصص فى دراسة الماركسية وفلسفتها وأُصولها ومدارسها - عن رجوع « ماركس » فى أُخريات حياته إلى الاعتراف بالدين بعد الرفض له ، وأن رفضه فى المراحل الأولى كان سياسياً ولم يكن فلسفياً . . وأن بعض مفكرى الماركسية الكبار من المعاصرين أمثال « روجيه جارودى »(١) أكَّدوا ذلك ، واعتبروه « مرونة » من ماركس . واعتبره « فكَّار » : « ارتداداً » ، والأوْلَى تسميته « رجوعاً » .

ينقل الدكتور فكَّار عن « ماركس » قوله بصريح العبارة :

« الإلحاد لا معنى له ، لأنه إنكار للإله بلا مبررات ، اللَّهُمَّ إلا إذا كان الهدف أن يحل الإنسان محل الإله » !

ويكرر « ماركس » نصاً : « الاشتراكية ليست فى حاجة إلى مثل هذه الشطحات التجريدية الجوفاء ، والمضاربة على الإلٰه » .

---

(١) كُتِب هذا الكلام قبل أن يهتدى « جارودى » إلى الإسلام .

ومن الأدلة على تغير موقف « ماركس » : الرسالة التى وجهها إلى « البابا » يهنئه فيها على موقفه من « الحلف المقدَّس » ورفضه الدخول فيه ، والانضواء تحت لوائه : حلف أُولئك الذين شوَّهوا جوهر الدين ، حين اتخذوا منه « شُرطة روحية » فى خدمتهم والدين منهم براء !

ومن ذلك مهاجمته للفيلسوف الملحد المشهور « فيورباخ » حيث وصفه « بأنه جعل من الوجدان والروح الدينية شيئاً راكداً جامداً ، لا قدرة فيه أو له على التغيير » .

و« فيورباخ » هو صاحب الكلمة الجاحدة الجاهلة : « ليس صواباً أن الله خلق الإنسان ، بل الصواب : أن الإنسان هو الذى خلق الله » . .

وكبرت كلمة خرجت من فِيه ، ما قال إلا كذباً .

وأكثر من ذلك وأصرح وأوضح : هذا النص الذى يقول فيه « ماركس » حرفياً - كما يقول الدكتور فكَّار - : « إن الإلحاد قد عاش وقته . . إنه تعبير سلبى ، لا يعنى

شيئاً بالنسبة للاشتراكيين الأُصلاء ، إن المعنى لديهم ليس هو إنكار الإله ، وإنما هو تحرير الإنسان »[1] .

ولكن مهما يكن عذر « ماركس » فما عذر الذين نشأوا فى ديار الإسلام ، ولم يكلفوا أنفسهم أن يدرسوه من مصادره ومن كتابات المحققين من علمائه ودعاته ؟

إن الذى يقرأ الكتب الإسلامية يراها طافحة بإنكار علماء الدين وأئمته على الظلم والظَلَمة ، والمناداة بإنصاف المظلومين من طبقات الشعب الكادحة[2] .

* * *

---

(١) انظر فى هذا : فصل « فى الماركسية والدين » من كتاب « تأملات إسلامية فى قضايا الإنسان والمجتمع » ص ٥٥ - ٦٨ نشر مكتبة وهبة - القاهرة .

(٢) انظر : كتاب « مواقف حاسمة للعلماء فى الإسلام » للأستاذين : على شحاتة وأحمد رجب ، ففيه أمثله عديدة على ذلك . وخاصة فى فصل « حماة الشعب » .

أثر الإسلام فى حركات المقاومة
والتحرر من الاستعمار

إن الذى يقرأ التاريخ الحديث يجد أن التيَّار الإسلامى كان وراء كل حركات المقاومة المستميتة للاستعمار فى كل صِقع من ديار الإسلام .

يقول الأستاذ « برنارد لويس » فى كتاب « الغرب والشرق الأوسط » :

« ومنذ بدء التغلغل الغربى فى العالَم الإسلامى ، حتى يومنا هذا ، كانت أهم الحركات الفكرية المتميزة المهمة الأصيلة التى قامت فى وجهه : حركات إسلامية .

« ولقد كان اهتمام هذه الحركات بمشاكل الإيمان والعقيدة ، وبمشاكل الجماعة المسلمة التى سيطر عليها غير المسلمين ، أكثر من اهتمامها بأرض أو بلد احتله الأجانب .

« وأقوى الحركات الثورية التى قامت ، والتى كسبت أقوى التأييد ، وأثارت حماس أغلب الجماهير كانت دينية شعبية فى أُصولها ، وفى شعاراتها ، وفى الأُسلوب الذى عبَّرت به عن غايتها وسبيلها .

« ولقد مرَّ العالَم الإسلامى فى تاريخ مواجهته الطويلة للمدنية الغربية بمراحل متعددة من اليقظة والمقاومة ، من المسايرة والرفض .. وحتى الأمس القريب كان للمشاكل التى تظهر دراسة ، وقياس ، وحلول فى إطار الإسلام .

« ونستطيع القول فى أيامنا هذه : إن من التهور التأكيد على أن « علمنة » المشاعر الإسلامية بلغت حداً لا رجوع بعده » (١) .

وفى موضع آخر يقول صاحب كتاب « الغرب والشرق الأوسط » :

« وأهم حركات المقاومة للغربيين المنتصرين المحتلين ، وأكثرها نجاحاً ، كانت فى الأناضول ، حيث قام جمع من الثوار بقيادة مصطفى كمال ، وتحدوا الحلفاء واليونان والحكومة العثمانية التى كانت قائمة فى ظلهم .

« ولقد حجبت علمانية وقومية الكماليين التى أعلنوها

---

(١) الغرب والشرق الأوسط : ترجمة الدكتور نبيل صبحى ص ١٤٨ ، ١٤٩

أخيراً ، الطابع الإسلامى القوى لحركة المقاومة فى أول مراحلها ، ولقد كان شعار الحركة : تحرير أرض الإسلام ، وشعوب الإسلام ، وتحرير الخليفة - السلطان - وطرد الغزاة المشركين .

« ولقد كان الزعماء الدينيون من العلماء ومن حركة الإخوان الدراويش ، أبرز المؤسسين ، وأقوى المساندين لحركة المقاومة ، التى قادها - بعد ذلك - مصطفى كمال » (١) .

أى إن حركة المقاومة كانت فى أساسها إسلامية ، غذتها الروح الإسلامية والمشاعر الإسلامية ، ثم سرقها وقادها العلمانيون القوميون : مصطفى كمال وأشياعه ، ونسبوا فخرها لأنفسهم ، وقطفوا ثمارها لعلمانيتهم .

والوجه الثانى فى الرد على الماركسيين : أن الذى عابوه على الدين وقعوا هم فيه ! عابوا على الدين ما فيه من غيبيات وتنبؤات مستقبلة مجهولة ! ومذهبهم ملئ بالحتميات والتنبؤات التى يكنها صدر الغيب !

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٨

عابوا على الدين ما فيه من تعظيم للأنبياء والقدِّيسين ، وما فيه من رسوم وشعائر تعبدية . ومع هذا نجدهم قد اتخذوا الأسلوب نفسه ، فإن الماركسية - كما هو معلوم لدى دارسيها ونُقَّادها - ليست مجرد فلسفة باردة ، إنها ديانة ، لها عقائدها وإنجيلها ، ورسلها وقدِّيسوها وطقوسها وشعائرها ، « وإن حشود المتعبدين يمرون يومياً فى « موسكو » أمام جثمان « لينين » فى لحده الرخامى الأسود ، وعلى وجوههم أمارات الخشوع والإجلال ، مرور المؤمنين من قبل أمام رفات الشهداء »[1] (يعنى : فى المسيحية ، فالإسلام يعتبر هذه المظاهر من الشِرك والوثنية) .

يقول الباحث الباكستانى الأستاذ ميرزا محمد حسين فى كتابه عن « الإسلام وتوازن المجتمع »[2] :

---

(١) كرملو ص ١٥٣ وما بعدها . نقلاً عن المذاهب الأخلاقية للدكتور عادل العوا : ٢٠٣/٢ ، ومن قريب رأينا الجماهير الغفيرة بالملايين فى الصين الشيوعية تقف وقفة التقديس والخشوع نفسها أمام جثمان الزعيم الصينى « ماو » فكيف يفسِّرون هذا الموقف تفسيراً مادياً وفقاً لفلسفتهم التقليدية ؟!!

(٢) ترجمة فتحى عثمان ص ٧٩

« إن البلشفية (الشيوعية) تستميت فى عداء الدين ، من أجل مظاهره الغامضة ، وعدته من الطقوس والشعائر ، ومع ذلك لم تحرز البلشفية تفوقها إلا بانتحال أساليب الدين ووسائله . ومن هنا تُدْعَى الآن « ديناً » .

أما كتبها المقدَّسة فهى تعاليم « كارل ماركس » التى يُنظر إليها بكل إجلال ، باعتبارها كشفاً وإلهاماً ، كما يُنظر إليها باعتبارها معصومة من أى خطأ !

وللشيوعية شُرَّاحها ومريدوها ودعاتها ، حتى شهداؤها !

ولها عقائدها وأُصولها ، وبدعها الزائفة المرفوضة !

وهى تأخذ فى مطاردة الهراطقة . . وفى تصفية الزنادقة ، وفى إقامة محاكم التفتيش ، وفى عمل المذابح ضد المتشككين والمنكرين والمرتَدِّين !

ولها طرائقها فى « الإلهام » و« الحرمان » !

ولها معبد أوثانها ، وأيقوناتها . الفاتيكان لديها هو « الكرملين » . والوثائق البابوية هى كتابات « ستالين » !

ولها طقوسها ورموزها المعقَّدة مثل أى دين ! [١] .

وإنها لتشغل قلوب أتباعها بوعود الخلاص ، وآمال المستقبل ، والجزاء المنتظَر فى نعيم الدنيا !!

وهى تتظاهر بأنها لا تعرض للدين فى معانيه الموروثة التى تلقى احترام الناس ، كما أنها لا تحاول إصلاح مفاهيمه إصلاحاً سليماً يُعتد به .

ولكنها تعمل على أن تطوى الدين تماماً وتحل محله

---

(١) « الخطيئة » - فى نظر هذه الديانة - هى الرأسمالية ، و« إبليس وجنوده » هو : القُوَى البرجوازية والرجعية ، و« المُخلِّص » هو الحزب ، و« مملكة السماء » هو الشيوعية ، و« الكَهَنة » هم المحترفون الثوريون الذين يستشفون أعمق أعماق الطبقة الكادحة ، ويتلقون الأسرار الحقيقية من خلال « رؤاهم » ويذيعونها على « المؤمنين » ، وأخرويات هذه العقيدة الجديدة ليست « ميتافيزيقية » ، بل هى أخرويات « علمية » ، فهى « اشتراكية علمية » . أما الطقوس والابتهالات فيلتمسها هؤلاء فى نظرية وتكتيك الحزب عند لينين .. إلخ .

انظر : حلقة البحث الإسلامية : ما بعد النكبتين ص ٢٢ - ٢٣

شعارات معادية للأُلوهية ، ولكنها « دين » من طراز غريب » !

والواقع أن الذى ينبغى أن يُطلق عليه بحق أنه أفيون الشعب هو : الإيمان بالشيوعية ، فهى التى تُمنِّى الناس بجنَّة موهومة على الأرض ، جنَّة تختفى فيها الفوارق ، وينعم الناس بالرخاء والأمن والمساواة والحرية .

وقد مضى على قيام أول دولة ماركسية نحو ستين سنة وهم فى ظل ديكتاتورية متسلطة مستبدة لم ير التاريخ أشد منها ظلماً وطغياناً وتجبراً . وأصدق شاهد على ذلك حملات التطهير وحمَّامات الدم ، التى تُقام بين حين وآخر .

ومن الغريب أن تجد فى أبناء المسلمين مَن ينادى بإبعاد دينهم عن قيادة المجتمع ، وتوجيه الحياة فيه ، على حين نجد من مفكرى الغرب مَن يترقب أو يتمنى أن يكون للإسلام دور فى هداية المجتمع العالمى ، والأخذ بيديه إلى

الصراط المستقيم ، أو المنهج المتوازن الذى هو طابع هذا الدين .

يقول الدكتور « جرمانوس » : « إن مستقبل العالَم وخلاصه من خطر الاصطدام الاجتماعى الذى يهدده ، لن يكون إلا فى المزاوجة بين الحضارة الأوروبية بدرسها وعلمها ، وبين الروح العالية التى تنطوى عليها عقائد الدين الإسلامى . وإنى أُؤمل أن يكون الإسلام قادراً مرة أُخرى على تحقيق هذه المعجزة فى سبيل وحدة الجماعة الإنسانية . . » .

❊ ❊ ❊